شعر علي بن أبي طالب

الأستاذ السيد يعقوب بكر

هل كان شاعراً ؟

لعلنا فى حاجة قبل كل شيء إلى أن نصل إلى رأى فى هذه المسألة : وهى هل كان على شاعراً أم لم يكن ؟ ذلك لأنه قد ثارت حول هذه المسألة مجادلات ؛ فذهب قوم إلى أن علياً كان شاعراً ، وذهب آخرون إلى أنه لم يكن كذلك ، وإنما كان كاتباً وخطيباً . أقول إننا فى حاجة إلى أن نصل إلى رأى فى هـذه المسألة قبل كل شيء . والواقع أننا لسنا فى حاجة إلى شيء بعد ذلك لأننا قد وصلنا فعلاً إلى رأى فى هذه المسألة : هو أن علياً كان من الشعراء . ولقد وصلنا إلى هذا الرأى بعد أن خطونا ثلاث خطوات :

١ — وجود الموهبة الشعرية عند على

ونقصد بالموهبة الشعرية هنا تلك الموهبة التى تولد مع الشاعر وتنمو بنموه وتنضج بنضوجه ، وتدفعه إلى قول الشعر ونظم القصيد. نقصد بها ذلك الاستعداد لقول الشعر واصطناعه وسيلة من وسائل التعبير عن النفس والتصوير لخلجات الوجـدان ونوازع القلب

هذه الموهبة الشعرية يكفى فى الدلالة عليها حياة النفس ، ويقظة القلب ، وتنبه الضمير ، والتأثر السريع العميق بما من شأنه التأثير السـريع العميق . يكفى فى الدلالة عليها اتقاد العواطف وحرارة الانفعالات

ولقد كان على بن أبى طالب ذا موهبة شعرية على هذا الأساس. فلقد كان حى النفس ، يقظ القلب ، مُتنبِّه الضمير ، يتأثر تأثراً سريعاً عميقاً بما من شأنه التأثير السريع العميق ؛ ولقد كان متقد العواطف حار الانفعالات

ويكفى فى التحقق من ذلك قراءة ما صح من خطبه وكتبه ، ففي هذه الخطب والـكتب نلمس الشعور الفياض ونحس به سارياً فى أثناء الـكلام . فنحن إذا قرأنا الخطبة الشقشقية شعرنا بمـا يضطرم فى صدر على من الألم لظفر أبى بكر ثم عمر ثم عثمان بالخلافة دونه ، مع أنه — فى نظره هو — أحق منهم بها لقربه من الرسول وتحدره من بيته . وهذا الألم الذى يضطرم فى صدر على ألم قوى شديد ، ينفث فى الـكلام مرارة يستشعرها القارئ ، وشكوى مفعمة بالأسى ، وظلالا من الشعور بالحرمان

ونحن إذا قرأنا جوابه عن كتاب معاوية إليه شعرنا بإيمان صاحب الحق بما له من حق ، وحرصه عليه ، وثورة نفسه على من يسعى لاغتصابه منه أو حرمانه إياه أو الاستئثار به دونه

وهكذا تنتظم خطب على وكتبه نفسه الحماسية ووجدانه الثائر وعواطفه الجياشة ، وتقوم دليلاً على أنه شاعرى الروح عظيم الحظ من الموهبة الشعرية

ولقد أحسَّ بروكلمان هذه الموهبة الشعرية عند على فقال فى خلال حديثه عن الديوان المنسوب إليه der Arab. Litteratur Geschichte ، ج ١ ص ٤٣ : « ليس من شك فى أن علياً كان ذا ملكة شعرية ... »

٢ — نسبة أشعار إليه فى بعض المراجع العربية المعتمدة

(ا) جاء فى عيون الأخبار لابن قتيبة (ج ٣ ص ٥ ط دار الـكتب) : « وقال على بن أبى طالب كرَّم الله وجهه :

أخوك الذى إن أحوجتك ملمّة
من الدهر لم يبرح لهـا الدهرَ واجما
وليس أخوك الحقُّ من إن تشعّبت
عليك أمور ظـل يلحاك لائما

(ب) جاء فى معجم الأدباء لياقوت (ج ٥ ص ٢٦٣ ط مرجليوث) : « قرأت بخط أبى منصور محمد بن أحمد الأزهرى اللغوى فى كتاب التهذيب له قال أبو عثمان المازنى لم يصح عندنا أن على بن أبى طالب تكلم من الشعر غير هذين البيتين :

تلـكم قريش تمنـانى لتقتلنى ولا وجدَّك ما بروا ولا ظفروا
فإن هلـكت فرهنٌ ذمتي لهم بذات روقين لا يعفو لها أثر

قال ويقال داهية ذات روقين وذات ودقين إذا كانت عظيمة[1]

وجاء فيه أيضاً (ج ٥ ص ٢٦٦) : « ومما يروى أن معاوية كتب إلى أمير المؤمنين على بن أبى طالب عليه السلام أن لى

(١) قال السيوطى فى شرح شواهد المغنى (ص ١٧٦ ط المطبعة البهية) : « ... وقال المرزبانى فى تاريخ النحاة قال يونس ما صح عندنا ولا بلغنا أن على بن أبى طالب قال شعراً إلا هذين البيتين :

تلـكم قريش تمنـانى لتقتلنى فلا وربك ما بروا وما ظفروا
فان هلـكت فرهن ذمتى لهم بذات روقين لا يعفو لها أثر

وقال وكيع فى الغرر حدثني ثعلب عن ابن الأعرابي قال يصح أن علياً رضى الله عنه قال من الشعر تلـكم قريش فذكر البيتين »

فضائل : كان أبي سيّدا فى الجاهلية وصرت ملكا فى الإسلام ، وأنا صهر رسول الله صلى الله عليه وسلم وخال المؤمنين وكاتب الوحى . فقال أمير المؤمنين عليه السلام أبالفضائل تفتخر على يا ابن آكلة الأكباد ؟ أكتب إليه يا غلام :

محمد النبي أخي وصهري ... وحمزة سيد الشهداء عمي
وجعفر الذي يضحى ويمسى ... يطير مع الملائكة ابن عمي
وبنت محمد سكني وعرسي ... مشوب لحمها بدمي ولحمي
وسبطا أحمد ولداي منها ... فأيكم له سهم كسهمي
سبقتكم إلى الإسلام طراً ... صغيراً ما بلغت أوان حلمي

فقال معاوية اخفوا هذا الكتاب لا يقرأه أهل الشام فيميلوا إلى ابن أبي طالب

(ج) جاء فى مقاتل الطالبين لأبى الفرج الأصفهانى (ص١٤ ط المطبعة الحيدرية بالنجف الأشرف) : وكانت فاطمة بنت أسد أمّه لما ولدته سمته حيدرة فغير أبو طالب اسمه وسماه علياً . وقيل إن ذلك اسم كانت قريش تسميه به . والقول الأول أصح ، ويدل على ذلك خبره يوم خيبر وقد برز إليه مرحب اليهودى وهو يقول :

قد علمت خيبر أنى مرحب ... شاكى السلاح بطل مجرّب
إذا الحروب أقبلت تلهّب

فبرز إليه على عليه السلام وهو يقول :

أنا الذى سمتنى أمى حيدره ... كليث غاب فى العرين قسوره
أكيلكم بالصاع كيل السندره

(د) جاء فى العمدة لابن رشيق (ج ١ ص ١٤ ط الخانجى) :

« ومن شعر على بن أبي طالب[1] رضى الله عنه وكان مجدداً قال له يوم صفين يذكر همدان ونصرهم إياه

ولما رأيت الخيل تركب بالقنا ... نواصيها حرّ النحور دوامى
وأعرض نقع فى السماء كأنه ... عجاجة دجن ملبس بقتام
ونادى ابن هند فى الطلاع وحمير ... وكندة فى لخم وحىّ حذام
تيممت همدان الذين همُ هم ... إذا ناب دهر جنتى وسهامى
فجاوبنى من خيل همدان عصبة ... فوارس من همدان غير لئام
فخاضوا لظاها واستطاروا شرارها ... وكانوا الذى الهيجا كشرب مدام
فلو كنت بواباً على باب جنة ... لقلت لهمدان ادخلوا بسلام

وهو القائل بصفين أيضاً :

لمن راية حمراء يخفق ظلها ... إذا قلت قدّمها حصين تقدما
فيوردها فى الصف حتى يَرِدْ بها ... حياض المنايا تقطر الموت والدما

(ه) جاء فى ديوان الحماسة للبحترى (ص ٦١ ليدن) :

ومما يروى عن أمير المؤمنين على بن أبي طالب صلوات الله عليه :

من أى يومىّ من الموت أفرّ ... أيوم لم يقدر أم يوم قُدِرْ

وقال عليه السلام أيضاً :

أعلىّ يقتحم الفوارس هكذا ... عنى وعنهم خيروا أصحابى
اليوم تمنعنى الفرار حفيظتى ... ومهنّد بالكف ليس بناب
آلى ابن عبد حين شدّ أليّة ... وحلفت فاستمعوا من الكذاب
ألا يصد ولا أهلل فالتقى ... بطلان يضطربان كل ضراب
فصددت حين تركته متجدلاً ... كالجذع بين دكادك وروابى
وكففت عن أثوابه ولو أننى ... كنت المجدّل بزنى أثوابى

(و) جاء فى الكامل للمبرد (ص ٥٤٤ من الطبعة الأوربية) :

« ومن شعر على بن أبي طالب ــ رضى الله عنه ــ الذى لا اختلاف فيه أنه قاله وأنه كان يردده أنهم لما ساموه « يعنى الخوارج » أن يقر بالكفر ويتوب حتى يسيروا معه إلى الشام ؛ فقال : أبعد صحبة رسول الله عليه السلام والتفقه فى الدين أرجع كافراً :

يا شاهد الله علىّ فاشهد ... أنى على دين النبى أحمد
من شك فى الله فإنى مهتدى

(ز) جاء فى العقد الفريد لابن عبد ربه (ج ٣ ص ١٢٣) :

« ... ومن قول على كرّم الله وجهه بصفين :

أمن راية سوداء يخفق ظلها ... إذا قيل قدمها حصين تقدما
فيوردها فى الصف حتى يردّها ... حياض المنايا تقطر السم والدما
جزى الله عنى والجزاء بكفه ... ربيعة خيرا ما أعف وأكرما

فهو غير قليلاً فى ألفاظ البيتين اللذين ذكرهما ابن رشيق ، وزاد بيتاً ثالثاً

* * *

هذه جملة أشعار وجدناها منسوبةً إلى على فى هذه المراجع العربية المعتمدة ، وهى بطبيعة الحال ليست كل ما فى هذه المراجع ، فإننا لو بحثنا فيها أكثر مما بحثنا ، لوجدنا جملة أخرى من الأشعار المنسوبة إلى على ؛ ولكننا نستطيع أن نقول واثقين : إن هذه الأشعار التي وجدناها هى معظم ما فى هذه المراجع من الشعر المنسوب إلى على ، وهى تكفينا على كل حال فى هذا البحث

٣ ــ هذه الأشعار مما يمكن صدوره عن على وفى عصر على

(١) قال فى حسن الصحابة (ج ١ ص ١١٨) : « قال ثعلب فى قوله أنا الذى سمتنى أمى حيدره لم يختلف الرواة أن هذا الرجز له ، وأيضا قد اشتهر فى كتب المغازى والسير أنه له » وقال (ص ١١٩) : « وقد نقل العلماء عن المازنى أنه استقبح ضمير المتكلم بعد الوصول فى أنا الذى سمتنى أمى حيدره وقال لولا اشتهار وروده لرددته فهو نفسه معترف بأنه اشتهر أنه لعلى رضى الله عنه ولذلك كف عن رده »

هى مما يمكن أن يصدر عن على ، لأنها تشف عن شخصيته

وتصور ما ألم به من الأحداث . فأنت إذا قرأت البيتين المذكورين له فى عيون الأخبار طالعتك صورة الحكيم المجرب الذى يرى أن صداقة الصديق لا تكون إلا إذا حزن لحزنك وبكى لبكائك ووجم لوجومك ومن ينكر أن علياً كان حكيماً مجرباً ؟ وكذلك إذا قرأت البيت المذكور له فى ديوان الحماسة طالعتك صورة العاقل الذى يرى ألا فرار من الموت فى أية حال من الأحوال ، ومن ينكر أن علياً كان عاقلاً ؟

وأنت إذا قرأت الرجز المذكور له فى مقاتل الطالبيين ، والأبيات الستة المذكورة له فى ديوان الحماسة ، طالعتك صورة الشجاع المغوار الذى يعمل جاهداً فى نشر الإسلام بالسيف بعد أن لم تُجدِ الحجة ؛ ومن ينكر أن علياً كان شجاعاً مغواراً ؟

وإذا قرأت الأبيات الخمسة المذكورة له فى معجم الأدباء ، طالعتك صورة صاحب الحق يدلّل على ما له من حق ، وكذلك كان على طيلة حياته ، فقد كان يشعر بمقر هذا ويألم لإغضاء أبي بكر وعمر وعثمان عنه ثم لتنكر معاوية آخر الأمر له .

فهذه الأبيات كلها تشف عن شخصيته ، وتصور نوازعه وخوالجه وروحه . ثم إنك إذا قرأت سائر الأبيات وجدت فيها صوراً من الأحداث التى ألمت به ؛ فالبيتان المشهوران المذكوران له فى معجم الأدباء يصوران رغبة قريش فى قتاله وقتله ، تلك الرغبة التى ظهرت فى سير طلحة والزبير وعائشة إليه ووقوع وقعة الجمل بعد ذلك . والرجز المذكور فى الكامل على قِصَره يعطينا صورة عن خروج الخوارج عليه واعتقادهم كفره ثم استتابتهم إياه . والأبيات التى قالها فى صفين تصور هذه الوقعة أجل تصوير وأقواه

فأنت ترى إذن أن هذه الأبيات التى وجدناها له مما يمكن صدوره منه لأنها تصور شخصيته وحوادث عصره

ثم هى أيضاً مما يمكن صدوره فى عصره ، ونقصد بذلك أنها تتسم بالطابع الذى يطبع آداب هذا العصر وهو طابع القوة والصدق . فنحن نعرف أن هذا العصر عصر عربى خالص لم تشبه بعدُ شوائب العجمة ، فهو إلى البداوة أقرب منه إلى الحضارة . ونحن نعرف أيضاً أن الروح العربية الخالصة روح قوية صادقة لم يُغَشِّها شيء ولم يلبسْها شيء . ولذلك وجدنا آداب هذا العصر العربى الخالص متسمة بهذه الروح العربية الخالصة بما فيها من قوة وصدق . وليست هذه الأشعار التى نقرأها لعلى ببعيدة عن هذا الطابع الذى يطبع آداب هذا العصر الذى عاش فيه على . ويمكن لكل ذى ذوق أن يحس ذلك إحساساً واضحاً

هذه هى الخطوات الثلاث التى خطوناها فأدت بنا إلى الرأى الذى قدمناه فى أول هذا القسم من البحث وهو أن علياً كان من الشعراء . وليست الخطوة الواحدة من هذه الخطوات بقادرة وحدها على أن تؤدى بنا إلى هذا الرأى ، وإنما هى تؤدى بنا إليه إذا تعاونت مع أختيها وانضمت إليهما

ونحن نحب بعد أن أثبتنا رأينا هذا أن نعود إليه فنقويه بأقوال بعض المؤيدين لنا من المتقدمين :

١ — يقول السيوطى (تاريخ الخلفاء ص ٧٠ ط الميمنية) : « وأخرج عن الشعبى قال كان أبو بكر يقول الشعر وكان عمر يقول الشعر وكان عثمان يقول الشعر وكان على أشعر الثلاثة »

هكذا يقول الشعبى وهو ثقة، ثم هو أيضاً من المتقدمين فقد كان معاصراً للحجاج وعبد الملك ابن مروان

٢ — يقول ابن عبد ربه (ج ٢ ص ١٢٣) : «وقال سعيد ابن المسيب كان أبو بكر شاعراً وعمر شاعراً وعلى أشعر الثلاثة »

فسعيد بن المسيب يقول قول الشعبى ، وهو ثقة فقد كان أحد الفقهاء السبعة بالمدينة ، ثم هو متقدم فقد كان معاصراً لعبد الملك وتوفى بالمدينة سنة ٩٨ هـ

(البحث بقية) السيد يعقوب بكر

الأسبوع الثانى
إخراج عبد الفتاح حسن